الفصل الأول

عصر رفاعة الطهطاوى

١ ــ الحركة السياسية

ا ــ مصر والشرق الأدنى فى أواخر العصر المملوكى :

انقلب الأوربيون إلى ديارهم بعد أن منوا بالهزيمة فى الحروب الصليبية وقد بهرتهم أنوار الحضارة الإسلامية ، وأخذوا معهم مفاتيح تلك الحضارة ، فتفرغوا لها يقتبسون من لألائها ، وينقلون آثارها ، ويدرسون تواليفها ؛ ولقد ساعدتهم عوامل جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية أخرى على أن يسيروا بالحضارة فى طورها الجديد على طريقة جديدة تعتمد أكثر ما تعتمد على التفكير الحر أولاً ، وعلى الملاحظة والتجربة والاستقراء ثانياً ، فمهد هذا كله لهم السبيل إلى كشوف علمية جديدة كانت هى الطلائع لحضارة القرنين التاسع عشر والعشرين .

كان الأوربيون يفعلون هذا كله فى حين كان الشرق قد اتخذ لنفسه ، أو اتخذ له القدر أسلوباً آخر من الحياة يختلف كل الاختلاف عن هذا الأسلوب الذى اصطنعته أوربا لنفسها أو اصطنعه القدر لها .

بذل الشرق الأوسط ــ وكانت مصر حينذاك مركزه وضيعته الغنية وحصنه القوى ــ جهوداً عنيفة لردّ الصليبيين عن مصر والشام ، ولم يكد ينجح فى مهمته حتى فاجأته غارات أشد قوة وتدميراً ، هى قوة التتار ، يغيرون عليه فى موجات متلاحقة متدافعة ، فصمد لها ، ودافعها حتى دفعها ودفع شرها ؛ وكان لمصر وحكامها من سلاطين المماليك كذلك الفضل كل الفضل فى تدويخ هذه الجموع الهمجية حتى أحست بالدوار ، فولت وجهها وجهه أخرى ترضاها ،

بعد أن قبست قبساً جديداً من نور الإسلام هذبها وشذب من وحشيتها .

تلاشت هذه الموجات الصليبية الأوربية والتترية بعد أن بذلت مصر وبذل سلاطينها الجهد كل الجهد ، والمال كل المال ، فى القضاء على هذين الخطرين ، لهذا لا نعجب إذا لاحظنا — بالمقارنة — أن عصر المماليك الثانى — وخاصة فى أواخره — يقل قوة وجاهاً عن عصر المماليك الأول .

ولا عجب أيضاً أن نجد الحركة العلمية فى مصر تخمد وتضعف فى هذه القرون ، فلم يظهر فيها مفكرون جدد ، ولا مدارس تفكيرية جديدة ، وانتهت العناية بالعلوم فى الأزهر والمساجد والمدارس التى كان ينشئها سلاطين المماليك إلى دراسات دينية أو لغوية أو تاريخية ، وانتهى جهد العلماء فى مصر إلى نظم قصيدة لمدح سلطان إذا انتصر ، أو تأريخ حياته إذا مات ، أو شرح ، أو تفسير ، أو تهميش ، أو تعليق ، أو اختصار لأمهات الكتب القديمة فى الفقه والتفسير والحديث وغيرها من العلوم الدينية واللغوية .

غير أن هناك شيئاً واحداً لم ينسه المصريون فى عصر من العصور ، ذلك هو شعورهم بأنفسهم ، وببلادهم مصر ، وبأمجادهم الحضارية خلال العصور ، ذلك الشعور كان له أثره الخطير فى تاريخ مصر العلمى ؛ فقد دفع المصريين دائماً إلى تأريخ أنفسهم وملوكهم وقضاتهم وعلمائهم ومدنهم ومعابدهم ونيلهم وأعيادهم . . . إلخ .

وكانت لنا من هذا الجهد المتصل سلسلة كتب الخطط وما يكملها من كتب التاريخ والتراجم ، تبدأ بكتاب « فتوح مصر » لابن عبد الحكم ، وتنتهى « بالخطط التوفيقية » لعلى مبارك ، و « تقويم النيل » لأمين سامى ، و « تاريخ الحركة القومية » لعبد الرحمن الرافعى .

ولم يكد القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) يوشك أن ينتهى حتى كان الإعياء قد أخذ من مصر كل مأخذ ، ولهذا نراها لا تستطيع أن تقف

طويلا أمام قوى العثمانيين المتفوقة ، وينتهى بها الأمر إلى الخضوع والاستقرار بعض الحين .

وكأننا بالمصريين وقد أحسوا الخطر الداهم فى ذلك الوقت ، فتدافعوا فى منافسة عجيبة — طوال القرن التاسع الهجرى — يسعون لجمع ما وصل إليهم من علم ، وما كان بين أيديهم من كتب ، فى موسوعات كبيرة ، فتظهر فى هذا القرن أسماء لامعة ، ونرى المقريزى يكتب « الخطط » و « اتعاظ الحنفا » و « السلوك » وعشرات غيرها من الكتب ؛ والقلقشندى يكتب « صبح الأعشى » وابن خلدون يضع تاريخه فى مصر ؛ والسيوطى يجمع مئات الكتب ؛ ثم نجد السخاوى أخيراً يؤرخ لهؤلاء جميعاً — ولغيرهم ممن عاشوا فى هذا القرن — فى كتابه « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » مترسماً خطى أستاذه ابن حجر فى كتابه « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » .

ب — الضعف الشامل فى العصر العثمانى وأسبابه :

فقدت مصر استقلالها بعد الفتح العثمانى ، وظلت القوى الثلاث الحاكمة (الباشا والديوان والمماليك) ، وهى قوام النظام الذى وضعه سليم الأول لحكم مصر ، وللاحتفاظ بها ولاية عثمانية أطول مدة ممكنة . ظلت هذه القوى تتناحر وتتنازع ، وكل واحدة منها تبذل جهدها لتحقيق غرضين اثنين :

— أن تقوى هى ، وأن تضعف القوتين الأخريين .

— أن تبتز من الشعب ما تستطيع ابتزازه من مال لتغنى .

وأما الشعب ، وأما البلد ، وأما نواحى الإصلاح للرقى بالشعب وبالبلد ، فقد أهملت جميعاً ، حتى سطر التاريخ لهذا العهد صفحة سوداء ، وغدت مصر توصف — فى هذا العهد العثمانى — بالضعف فى كل شىء : بالضعف فى النواحى الحربية والاقتصادية ، وبالضعف فى النواحى الصحية والعلمية ؛ وخيم على البلاد نوع من الخمود والركود ظل ثلاثة قرون طويلة .

بحث الأستاذ محمد شفيق غربال أسباب هذا الركود بحثاً موفقاً فى المقدمة التى قدّم بها كتاب « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » للدكتور حسين مؤنس ، فنفى قول القائلين بأن هذا الركود يرجع إلى كون « الحكام العثمانيين من شعب يميل إلى المحافظة بسليقته ، فالعثمانيون لم يكونوا من شعب واحد ، ولم تكن العثمانية إلا دلالة على الانتماء لطائفة الحاكمين ، هذا إلى أن نظم العثمانيين الأولى ، وما اختطه سلاطينهم الأول لشؤون الحرب والسياسة كان على جانب عظيم من المرونة والمقدرة »[1].

ثم وضع الأستاذ — بعد ذلك — أصبعه على موطن الداء ، وسبب ذلك الركود ، فقال :

« قد يرجع الركود إلى أن القوة العثمانية حالت بلا شك دون اتصال أمم الدولة بالحضارات الأجنبية عموماً ، وبالحضارة الأوربية خصوصاً » .

٢ — الحركة العلمية

١ — الحالة العلمية بمصر فى أواخر القرن الثامن عشر :

ومهما تكن الأسباب فإنا لا نستطيع أن ننسى أن هذا الركود الطويل دفع مصر وسكانها إلى الانكماش داخل بلادهم كما تنكمش القوقعة داخل صدفتها ، وطال انكماش مصر وسكانها فأصيبت وأصيبوا بالضعف ، شأن المريض يطول به الرقاد وتطول به الوحدة ، لهذا لا نعجب إذا قرأنا وصف الرحالة الأوربيين الذين وفدوا على مصر والشام وسائر بلدان الدولة العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر ، أمثال « سافارى Savary » و « ڤولنى Volney » وغيرهما .

(١) حسين مؤنس : « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص « و » من المقدمة .

قال « ڤولنى » يصف الحالة الصناعية والعلمية فى مصر وقتذاك :

« الجهل عام فى هذه البلاد مثل سائر تركيا ، وهو يشمل كل الطبقات ، ويتجلى فى كل العوامل الأدبية والطبيعية ، وفى الفنون الجميلة ؛ حتى الصناعات اليدوية ، فإنها فى أبسط أحوالها ، ويندر أن تجد فى القاهرة من يصلح الساعة ، وإذا وجد فهو إفرنجى ؛ أما الصياغة فأصحابها فيها أكثر مما فى أزمير وحلب ، لكنهم جهلاء ، وهم إنما يتقنون المنسوجات الحريرية ، وإن كانت أقل إتقاناً وأغلى ثمناً من تلك التى تصنع فى أوربا ؛ أما العلم فوجود الأزهر فيها جعلها مقصد الطلاب من الشرق الإسلامى » .

وحتى هذا العلم ، وحتى هذا الأزهر لم يكونا فى القرن الثانى عشر (الثامن عشر الميلادى) فى حالة طيبة مبشرة ، بل شملتهما موجة من الركود والجمود ، وقد وصف مؤرخ مصرى — هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى — مدى ما وصلت إليه الحالة العلمية فى مصر من تأخر وجمود فى ذلك القرن ، فذكر أن أحمد باشا الوالى التركى على مصر (١١٦٢ — ١١٦٣ هـ ١٧٤٩ — ١٧٥٠م) كان : « من أرباب الفضائل ، وله رغبة فى العلوم الرياضية ؛ ولما وصل إلى مصر واستقر بالقلعة ، وقابله صدور العلماء فى ذلك الوقت ، وهم : الشيخ عبد الله الشبراوى — شيخ الجامع الأزهر — ، والشيخ سالم النفراوى ، والشيخ سليمان المنصورى ؛ فتكلم معهم ، وناقشهم وباحثهم ، ثم تكلم معهم فى الرياضيات فأحجموا ، وقالوا : (لا نعرف هذه العلوم) ، فتعجب وسكت » .

ثم ذكر مؤرخنا أن الشيخ الشبراوى طلع على عادته إلى القلعة فى يوم جمعة ، « واستأذن ، ودخل عند الباشا بحادثه ، فقال له الباشا :

— « المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها ، فلما جئتها وجدتها — كما قيل — : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » .

فقال له الشيخ :

« هى يا مولانا ــ كما سمعتم ــ معدن العلوم والمعارف » .

فقال :

ــ « وأين هى ؟ وأنتم أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم ،ــ فلم أجد عندكم منها شيئاً ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ، ونبذتم المقاصد » .

فقال له : « نحن لسنا أعظم علمائها ، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب والغبار » .

فقال له :

« وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل هو من شروط صحة العبادة ، كالعلم بدخول الوقت ، واستقبال القبلة ، وأوقات الصوم والأهلة ، وغير ذلك !! »

فقال :

« نعم ، معرفة ذلك من فروض الكفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقة الطبيعة ، وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل ، والأمور العطاردية ؛ وأهل الأزهر بخلاف ذلك ، غالبهم فقراء ، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك . »

فقال :

ــ « وأين البعض ؟ » .

فقال :

ــ « موجودون فى بيوتهم ، يسعى إليهم » .

ثم أخبره عن الشيخ الوالد (يقصد والده الشيخ حسن الجبرتى ، العالم الرياضى الفلكى الكبير فى ذلك الحين) ، وعرّفه عنه ، وأطنب فى ذكره . . »

ثم ذكر الجبرتى بعد ذلك أن الباشا أرسل إلى الشيخ حسن الجبرتى فاستدعاه لمقابلته ، وأنه « سرّ برؤياه ، واغتبط به كثيراً ، وكان يتردد إليه يومين فى الجمعة . . . وأدرك منه مأموله . . . ولازم المطالعة عليه مدة ولايته ، وكان يقول : لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعى بهذا الأستاذ لكفانى . . . »

وأخيراً يختم الجبرتى قصة والده وعلماء مصر مع الباشا بجملة لطيفة فيها نقد ساخر لاذع ، فيقول :

« وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوى كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول : ستّرك الله كما سترتنا عند هذا الباشا ، فإنه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حميراً . . . » .

ب ــ الصلة بين الشرق والغرب :

لم تنقطع الصلات بين الشرق والغرب ــ حرباً وسلماً ــ منذ ظهر الإسلام ، وكانت الحروب الصليبية أبرز صور هذه العلاقات ، ولكن معاركها الحربية انتهت بإخراج صليبيي أوربا من بلدان الشرق الإسلامى، فعادوا إلى قارّهم وهم يشيدون بشجاعة الشرق وقوته وتفوقه ؛ ثم شغلت أوربا منذ ذلك الحين بنهضتها وحروبها القومية الداخلية قروناً ، وشغل الشرق بالمغول حيناً، وبنفسه حيناً آخر ؛ كل ذلك والصلة تضعف شيئاً فشيئاً ، ولكنها لم تنقطع ، فقد ظلت السفن تنقل التجارة بين الشرق والغرب ــ عبر مصر والشام ــ طول عصر المماليك ، فكانت تجلب معها إلى موانئ مصر والشام التجار الغربيين ، وكانت تقيم منهم جاليات فى هذه الموانئ ، وكان يقيم مع هذه الجاليات قناصل يرعون مصالح دولهم التجارية ، وكانت المعاهدات والاتفاقات التجارية تعقد بين حكام مصر والشام من المماليك ، وبين ملوك ودوقات هذه الدول الأوربية ، وكانت مصر

(١) الجبرتى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » المطبعة الأهلية . القاهرة ، ١٣٢٢هـ ، ج ١ ، ص ١٩٣ ــ ١٩٤ .

أخيراً حريصة الحرص كله — طول عهد المماليك — على أن تبقى هذه العلاقة قوية وثيقة ، فهى المنبع الذى يدر عليها المال الوافر ؛ ولكننا نستطيع أن نقول إن الصلة العلمية بين مصر والغرب فى ذلك العهد لم تكن ذات أثر فعّال ، إذ لم يكن لدى مصر وقتذاك علم جديد تقدمه وتزجيه ، ولم يكن الوافدون عليها من تجار أوربا ممن يعنون بنقل العلوم ، ولم تكن أوربا قد خطت بعد — حتى الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ — فى سبيل نهضتها الجديدة الخطوات المجدية .

وجاء الفتح العثمانى فحجب — كما أسلفنا — مصر وبلدان الشرق عن الاتصال بالغرب ، وعاصره أيضاً كشف الغربيين لطريق رأس الرجاء الصالح ، فتحولت التجارة وتحول الخير معها عن مصر ، وهكذا انقطع الخيط الأخير من الصلات التى كانت تربط بين مصر ودول أوربا ، فبدأت مصر عهداً غريباً من الرهبنة أو التصوف أو الدروشة ، ساعدها عليه كثرة ما أنشئ بها على ذلك العهد من خوانق ورُبَط وزوايا وتكايا ، وتسيطر على عقول الجماهير جماعات من المشعوذين[1] ومدعى الولاية ، فشاعت الخرافات والترهات ، وأصبح الإيمان بالمعجزات يقوم عند الشعب بل عند العلماء مقام الدين .

وهكذا تم لمصر — وهى زعيمة الشرق — كل عوامل الضعف : فقد ضعفت حربياً بتملك العثمانيين لها ، وضعفت اقتصادياً بتحول التجارة عنها ، وضعفت علمياً وروحيا بسيطرة أفكار التصوف والدروشة على عقول أهليها .

وكانت أوربا — حتى أواخر القرن الثامن عشر — « لا تزال تحفظ للشرق الإسلامى الشىء الكثير من الاحترام ، لأنها لم تنس بعد بأسه الشديد فى الحروب الصليبية وفتوحات الأتراك ، ولكن نفراً من السائحين بدأ يدخل الشرق ، ويطوف به ، ويتأمل أحواله ، فيزداد عجباً ، ثم يمضى إلى قومه فيتحدث إليهم عما رأى

---

(١) انظر مثلا : قصة الشيخ على البكرى : (الجبرتى ، ج ١ ، ص ١١٣ — ١١٤ ؛ ج ٣ ، ص ٨٤ — ٨٥) ، وقصة خادم المشهد النفيسى والعزة (نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٦٤) وقصة يوم القيامة (نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٥٢) . . . إلخ

من انحطاط المجموعة الإسلامية وضعفها البالغ ، فبدأ الأوروبيون يشكون فى قوة الشرق الإسلامى ، وبدأت هيبته تسقط من أعينهم ، وفكروا فى استعمال طريق البحر الأبيض من جديد » [١].

وفيما نقلناه عن « ڤولنى » تصديق لهذا القول ، ولهذا بدأت دول أوربا — وخاصة فرنسا — تفكر تفكيراً جدياً فى غزو هذا الشرق الضعيف ، وكانت نتيجة هذا التفكير الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ ، يقودها القائد الشاب المغامر « نابليون بونابرت » .

ج — اتصال علماء مصر بعلماء الحملة الفرنسية وأثره :

هزمت جيوش المماليك فى مصر أمام قوى الفرنسيين ، وتفرقت جنودهم شيعاً تلوذ بأذيال الفرار شرقاً نحو الشام ، وجنوباً نحو أقاصى الصعيد وبلاد النوبة والسودان ، ولهذا نستطيع أن نقرر أن الحملة نجحت من الناحية الحربية ، ولكنه كان نجاحاً وقتياً لم يلبث أن انكشف عن صعوبات جديدة ، كانت أهمها مقاومة الشعب المصرى ، وظلت الحملة الفرنسية سنوات ثلاثاً تناضل نضالا عنيفاً حتى عجزت فخضعت ثم ارتدت عن البلاد .

غير أن فريقاً آخر من رجال الحملة نجح نجاحاً مشكوراً فى مهمته التى ألقيت على عاتقه ، ذلك هو فريق العلماء المرافقين للحملة ، وكانت ثمرة جهودهم ذلك الكتاب الضخم النفيس الذى ضم خلاصة أبحاثهم ودراساتهم ، والذى طبع بعد خروجهم وهو كتاب وصف مصر Description de l'Egypte

وقد اتصلت الأسباب بين علماء الحملة وبين نفر من علماء مصر وخاصة : الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، والشيخ إسماعيل الخشاب ، والشيخ حسن العطار ، فعقدت أواصر الصداقة بينهم وبين نخبة من علماء الحملة المستشرقين

---

(١) حسين مؤنس ، « المرجع السابق » ، ص ٣٦ .

وترددوا على الدار التى اتخذها علماء الحملة مقراً لمعهدهم، وزاروا معاملهم ومكتبهم وشاهدوا تجاريبهم وأبحاثهم وصورهم ومطبعتهم ، وبهرتهم جميعاً علوم الفرنسيس وأثرت فى فن كل منهم ، فكانت كتابة الجبرتى « فى تاريخه بعد الحملة أدق وأكثر نقداً لسير الحوادث ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة . . . »[١] ؛ كما أصبح شعر الخشاب أرق حاشية وأسلس أسلوباً ؛ أما العطار فقد انحرف عن علماء عصره ، وترك الدراسات الدينية واللغوية جانباً ، وعنى عناية كبيرة بالدراسات الأدبية ، وكون له فى هذا الميدان مدرسة جديدة كان من تلاميذها الذين حذوا حذوه الشيوخ : إبراهيم الدسوقى ، ومحمد عياد الطنطاوى، ومحمد عمر التونسى ، ورفاعة رافع الطهطاوى ، وسيكون لهذه النخبة الطيبة جهود محمودة فى حركة الترجمة والحياة الثقافية الحافلة فى عصر محمد على أى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

قال على مبارك فى ترجمته للعطار : « واتصل بناس من الفرنساوية ، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية ، ويقول : إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها ، ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة »[٢].

وعاش العطار حتى ولى مشيخة الأزهر ، وشهد هذا التغيير فى الأحوال والمعارف الذى تنبأ به ، وخطب فى الحفل الذى أقيم بمناسبة عقد الامتحانات الأولى لمدرسة الطب ؛ وهو أخيراً صاحب الفضل على تلميذه رفاعة رافع الطهطاوى — زعيم النهضة العلمية الحديثة — ، وهو الذى رشحه ليكون إمام البعثة المصرية إلى فرنسا (سنة ١٨٢٦) .

---

(١) أحمد عزت عبدالكريم ، « تاريخ التعليم فى عصر محمد على ». القاهرة سنة ١٩٣٨ . ص ٢٤.

(٢) جمال الدين الشيال « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على » ، القاهرة ١٩٥١ .

د ــ النهضة العلمية الجديدة فى أوائل القرن التاسع عشر :

وبعد جلاء الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١ نشب صراع جديد بين قوى ثلاث : المماليك والأتراك والإنجليز ، وانتهى الصراع بخروج الإنجليز من مصر أولا ، ثم بضعف المماليك والأتراك ثانياً ، وكانت هناك ــ وراء الستار ــ قوة أخرى ظلت كامنة قرابة ثلاثة قرون ، فبدأت تظهر على المسرح وتثبت وجودها بعد أن أيقظتها الحملة الفرنسية ، تلك كانت قوة الشعب المصرى .

وبدأت إذ ذاك سياسة إصلاحية جديدة كان عمادها النقل عن الغرب فترجمت الكتب الأوربية فى مختلف العلوم الحديثة إلى اللغة العربية ، وأنشئت المدارس الجديدة على النمط الأوربى ، ثم أرسل المصريون فى بعثات إلى بلدان أوربا المختلفة ليتلقوا العلوم الجديدة فى مدارسها ويعودوا ليحلوا محل الأجانب الذين استعين بهم فى المشروعات الإصلاحية المختلفة [١] ، وكان رفاعة رافع الطهطاوى المبعوث الوحيد من بين جميع أعضاء البعثات الذى أعد للتخصص بالترجمة ، وسنرى فى ترجمتنا له أنه بذل الجهد كل الجهد ليكون أهلاً لتحمل العبء الذى ألقى على كتفيه ، وقد أدى لمصر وللثقافة من الخدمات ما جعله حقيقاً باللقب الذى أضفاه عليه مؤرخوه : « زعيم النهضة الثقافية فى مصر فى القرن التاسع عشر » .

٣ ــ الحالة الاجتماعية

ولد رفاعة فى سنة ١٨٠١ وهى السنة التى جلت فيها الحملة الفرنسية عن مصر ــ ، وتوفى سنة ١٨٧٣ فى أواخر عهد اسماعيل ، أى أنه عاصر الأحداث التى توالت على مصر خلال ثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع عشر .

---

(١) جمال الدين الشيال : المرجع السابق .

ولقد انتقلت مصر ، والشرق الأدنى العربى ، فى القرن التاسع عشر من عصر إلى عصر ، ومن حالة إلى حالة . انتقلت من عصر وسيط مظلم إلى عصر نهضة وإحياء ، ومن ولاية تابعة للدولة العثمانية إلى دولة مستقلة ، وكان للحياة الاجتماعية فى مصر على العصر الأول صورة مميزة ، شرقية فى كل شىء ، فى مناظرها وألوانها وفى أضوائها وظلالها .

وكانت سياسة الدولة العثمانية تهدف إلى أن تبعد ما استطاعت عن طريقة الحكم المباشر ، فلم تكن ترسم للناس سياسة معينة أو محددة للتعليم أو الزراعة أو الشؤون الصحية ، بل كانت تترك الناس يعالجون مشاكلهم فى هذه النواحى جميعاً بالطريقة التى يؤثرون ، وكان يكفيها منهم أن يدينوا لها بالولاء .

وكان لهذه الطريقة من طرق الحكم آثار جد خطيرة ، لعل أبرزها إهمال مرافق البلاد إهمالا شائناً ، وذلك لأن الحكومة لم تكن لها — كما أسلفنا — سياسة عامة مرسومة تعمل دواوينها المختلفة على تنفيذها .

وكانت السلطة فى نفس الوقت موزعة بين هيئات مختلفة تسعى كل هيئة منها جاهدة أن تستأثر وحدها بالسلطة ، وأن تقوى هى وأن تعمل على إضعاف الهيئات الأخرى ، ففى القلعة يقيم الوالى أو الباشا العثمانى ، وفى الأقاليم يستبد بالأمور بكوات المماليك ، وعلى حواشى الوادى تقيم عصابات العربان ، وبين هذه القوى جميعاً كانت مصالح الشعب مهدرة مضيعة .

لهذا حاول الشعب أن ينشىء لنفسه أنواعاً من التجمعات ، ترعى مصالحه وتحميه من بغى السلطات الحاكمة واستبدادها ، فأهل الفلاحة — كما يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم — كان « يهيمن عليهم نظام الالتزام ، والمشتغلون بالصناعات فى المدن منتظمون فى طوائف الحرف ، وأهل العلم من العلماء والمجاورين يكونون طائفة لها اعتبارها وكيانها ، والمتصوفة وأرباب الأشاير لهم طرقهم ، والأجناد منتظمون فى أوجاقاتهم أو تابعون لأمرائهم وسادتهم ، والأعراب والبدو منتمون إلى عشائر معروفة ، والحكومة لا تتصل بأحد من هؤلاء

إلا عن طريق طائفته ، فهى لا تعرف الفرد إلا مندرجاً فى طائفة ، والفرد لا يستطيع أن يمارس نشاطه كله ويضطرب فى الحياة آمناً إلا إذا كان منتمياً لطائفة يخضع لنظمها ويحتمى بظلها ، وهكذا توزعت الأمة — لفظ الأمة تعبير حديث من مصطلحات عصر النهضة (القرن التاسع عشر) — توزعت الأمة بين طوائف مختلفة ، لكل طائفة كيانها وتقاليدها وزعامتها ، وهى تأخذ المنتمين إليها بفنون من التنظيم والتأديب والتهذيب ، كان لا بد منها فى عصر انكمشت فيه وظيفة الدولة وتفتت سلطانها وعزت حماية الفرد .

ولم يكن من اليسير أن يتحول فرد من طائفته إلى طائفة أخرى . فقد جرت العادة أن ينشأ ابن الفلاح فلاحاً وابن الصانع صانعاً ، وابن العالم عالماً ، وليس ثمة ما يدعو ابن الريف — وحاجته من الرزق على ما يقدر مكفولة — إلى أن يهجر قريته إلى المدينة ، فليس فى المدينة إذ ذاك ما يغريه بذلك ، والفلاح المصرى أو ابن المدينة لا يستطيع أن يستحيل جنديا أو مملوكاً أو أعرابيا .. إلخ»(١).

ومع هذا فقد بقيت مصر طوال العصر العثمانى منطوية على نفسها مقفلة النوافذ والأبواب ، وكانت العلاقات بينها وبين العالم الخارجى — وخاصة أوربا — مقطوعة مبتوتة ، فلو أن الحكومات المشرفة على مصر عملت على النهوض بها داخليا خلال هذه المدة لهان الخطب ، ولكن زاد الطين بلة أن هذه العزلة صحبها ركود واضمحلال فى كافة شؤون مصر الداخلية ، حربية كانت أم ثقافية أم اقتصادية أم اجتماعية .

ولم يكد يشرف القرن الثامن عشر على نهايته حتى كان الغرب قد ضاق ذرعاً بهذه العزلة التى تقبع فيها بلدان الشرق الأدنى — ومصر بوجه خاص — ، ولم يشأ هذا الغرب الأوربى أن يسلك السبيل السوى فيدعو مصر إلى أن تقطع حبل هذه العزلة ، وإلى أن تفتح الأبواب والنوافذ كى تسمح لأضواء الحضارة الأوربية الجديدة بالدخول والانتشار ، ولكنه آثر أن يقوم هو بفتح هذه الأبواب والنوافذ

(١) « دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة » ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٥٢٩ .

وبالقوة ، قوة السلاح ، فقد كانت تدفعه عوامل الاستعمار ، عوامل الأثرة والاستغلال ، مما أثار قوى المقاومة الداخلية ، وقوى المنافسة الخارجية وبهذا اضطرت جيوش الفرنسيين إلى الجلاء عن مصر بعد أن قضت فى ربوعها سنوات ثلاثاً لم تذق فى خلالها طعم الراحة يوماً واحداً .

وهكذا استيقظت مصر من سباتها الماضى الطويل العميق ولكن يقظتها لم تكن تلقائية رفيقة ، بل كانت يقظة عنيفة مفاجئة دفعت إليها دفعاً ، وكانت الأضواء التى حملها الفرنسيون — أضواء السلاح والحضارة والعلم والمجتمع الجديد — قوية براقة ، كادت تغشى على عيون المصريين ، ولم يتمالك كبير من علمائهم — وهو المؤرخ المعروف عبد الرحمن الجبرتى — أن يعبر عنها حين زار مكتبة الفرنسيين ومعهدهم بقوله : « ولهم فيه أمور وتراكيب غريبة ، ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا » .

وشهدت مصر فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر صراعاً عنيفاً بين قوى ثلاث : الأتراك والمماليك والإنجليز ، كل منها تعمل لحسابها ، وتمهد السبيل كى تفوز هى وتصبح لها السيطرة على مصر وشعبها وشؤونها ، ووسط هذا الضباب الكثيف ووسط هذا العثير المتطاير نتيجة لصراع هذه القوى الأجنبية الثلاث بدأت تظهر قوة جديدة ظلت كامنة قرابة ثلاثة قرون ، تلك هى قوة الشعب المصرى .

وأدرك الحكام الذين توالوا على عرش مصر فى القرن التاسع عشر أنه لا بد من رسم سياسة إصلاحية جديدة لانتشال الكنانة من هذه الخراب والفساد التى تردت فيها طوال العصر العثمانى ، ورأوا أن السبيل القويم للإصلاح هو الاتجاه نحو الغرب والاقتباس من نظمه والنقل من علومه ، وخطوا نحو تنفيذ هذه السياسة الإصلاحية خطوات مختلفة ، فبدأوا باستخدام الأجانب والاستعانة بهم ثم قفوا بإرسال المصريين فى بعثات إلى أوربا ، ثم ثلثوا بإنشاء المدارس الجديدة فى مصر على النظام الأوربى .

وكان رفاعة واحداً من المبعوثين إلى أوربا ، نشأ فى قلب الصعيد وتعلم فى الأزهر ، فلما وصل إلى فرنسا شُده لمظاهر الحياة الاجتماعية التى شاهدها هناك فقد كانت تختلف اختلافاً كلياً عن مظاهر الحياة الاجتماعية التى ألفها فى مصر ، فإذا كان المصريون يجلسون على الأرض ويتجمعون عند الأكل حول « الطبلية » أو كرسى فوقه صينية ، ويتناولون الطعام جميعاً من إناء واحد بأيديهم فإن الفرنسيين يجلسون على كراسى وأمامهم مائدة ولكل منهم طبقه وقدحه ويستعملون الشوكة والسكينة والملعقة ، وإذا كان للمنزل المصرى نظامه الخاص من جناح خاص بالسيدات هو « الحرملك » ، وجناح خاص بالرجال هو « السلاملك » وإذا كانت الحال الاجتماعية لا تسمح للجنسين بالاختلاط ، بل تقسر المرأة على الإقامة دائماً فى المنزل ولا تخرج منه إذا خرجت إلا محجبة ، ولا يسمح لها أن تتردد على المجتمعات أو دور العلم أو أن تشارك الرجل فى العمل أو المناقشة ، إذا كان هذا حال المنزل والمجتمع فى مصر ، فإن المنزل فى فرنسا له نظام مختلف ، وللمرأة فيه وفى المجتمع المكانة الأولى ، يحترمها الرجل ويفسح لها فى الطريق أمامه ، ولا يجلس إلا إذا جلست ، وهى تشترك وإياه على قدم المساواة فى العمل وفى معاهد العلم وفى الحلقات الاجتماعية وفى المناقشة .

وهكذا الحال فى الشوارع والحدائق والمتنزهات والمقاهى ودور العلم ، فالصورة غير الصورة ، والنظم غير النظم مما دفع رفاعة إلى أن يرسم صور ما رأى فى فرنسا فى رحلته « تخليص الإبريز » وأن يعقد دائماً المقارنة بين ما رأى هناك وما ألف فى مصر ، ناقداً مرة ، وموافقاً مرة أخرى .

وعاد رفاعة وغيره من المبعوثين المصريين إلى مصر وحاولوا أن ينقلوا إلى المجتمع المصرى بعض المظاهر الطيبة مما رأوا فى أوربا ، وحاولت حكومات مصر فى القرن التاسع عشر وهى تعمل على تنفيذ سياستها الإصلاحية أن تنقل إلى مصر بعض المظاهر الأخرى للحياة الاجتماعية فى الغرب ، وتوافد على مصر فى القرن نفسه عدد كبير من الأوربيين ممن استعانت بهم الحكومة لتنفيذ إصلاحاتها أو

ممن أتوا يلتمسون أبواب الرزق ، وهؤلاء نقلوا معهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى الغرب ، وكان وجودهم دافعاً للمصريين إلى محاكاتهم .

وقف المصريون أول الأمر من هذا اللون من الحياة الاجتماعية موقف الكاره ، ونقلوا عنها فى حذر ، ولكنها لم تلبث أن اقتحمت عليهم حياتهم — سنة التطور دائماً — ، ففتحت فى القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى الشوارع الجديدة الواسعة ، وبنيت المنازل على النمط الأوربى ، وأنشئت المدارس والحدائق والمتاحف ومعاهد العلم على النظام الغربى ، واقتبس المصريون نظم المائدة والمأكل والمشرب والملبس عن الأوربيين ، وبدأت المرأة المصرية تتخفف من الحجاب شيئاً فشيئاً ، وعرفت مصر الجريدة والمجلة والمسرح والمطبعة .

ويعتبر رفاعة — بحق — أول داعية لتعليم المرأة فى مصر ، بل فى الشرق العربى كله ، فقد ذكر يعقوب أرتين فى كتابه عن التعليم العام فى مصر أن لجنة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ اقترحت العمل لتعليم البنات فى مصر ، وقد كان رفاعة عضواً من أعضاء تلك اللجنة ، غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ ، لأن المجتمع المصرى لم يكن على استعداد وقتذاك لقبول هذه الفكرة ، واكتفى بإنشاء مدرسة المولدات والقابلات .

وفى سنة ١٨٧٣ تجددت الفكرة ، وكان رفاعة من أكبر الداعين لها ، ففى هذه السنة أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر ، وقبل إنشاء المدرسة بسنة واحدة أخرج رفاعة كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » ، وفيه يدعو للفكرة ويمهد لظهورها فيقول : « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلا ، ويجعلهن بالمعارف أهلا ، ويصلحهن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى ، فيعظمن فى قلوبهم ، ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش ، مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها ، وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه

الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرونه بأنفسهن وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن عن الأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة . . . إلخ » .

لقد ظهر فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين رجال أفذاذ كانوا روّاد الحركات الإصلاحية فى الحياتين الفكرية والاجتماعية وقد أهلهم لهذه المنزلة أنهم جمعوا بين الثقافة العربية الشرقية الأصيلة وبين الثقافة الغربية الأوربية الحديثة ، وكان رفاعة أول نموذج لهؤلاء الروّاد ، ويشبهه فى هذا جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وطه حسين فإن السر فى عظمتهم أنهم جميعاً قبسوا قبساً من ثقافة الشرق وقبساً من ثقافة الغرب .